الطبيعة في شعر تميم بن المُعِزُّ لدين الله الفاطمي

م. د. محمود سهيل عبد الله -الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

المستخلص

يتناول هذا البحث ظاهرة الطبيعة في الشعر متخذاً من شعر تميم بن المُعِزّ لدين الله الفاطمي أنموذجاً، وقد حاول الباحث أن يثبت وجودها في أثناء تناول ديوانه الذي حققه: محمد حسين الأعظمي، مادة للبحث والاستقراء، وقد جاء البحث موزعاً في ثلاثة مباحث خصص الأول بتقديم موجز عن الطبيعة في شعره مبنّياً على الدراسة الفنية، والمبحث الثاني عُني بدراسة الطبيعة الصامتة بركنيها الأرضية والسماوية، واختص المبحث الثالث بدراسة صور الحيوان -الطبيعة الناطقة- وطرائق توظيفها عند الشاعر وما مثلته من رموز ودلالات .

واشتمل البحث على خاتمة ضمّت أبرز نتائج البحث، وثبتاً لأهم المصادر والمراجع التي استعان بها الباحث . والله الموفق .

Abstract

This paper studies the image of nature in poetry, taking for its model the poetry of Tameem B. El-Muez LeDin Allah El-Fatimi. The researcher tried to prove its existence in his volume of poetry edited by Muhammad Hussein El-Adami. The paper falls into three sections. Section one deals with the artistic representation of nature in his poetry. Section two studies silent nature-earthly and heavenly- in his poetry. Section three studies the images of animals-talking nature- in his poetry and their symbolic value. The paper ends with its main findings and views.

المبحث الأول
صور الطبيعة في شعر تميم

الطبيعة هي ما جُبِلَ عليه الكون من أرض وسماء وما بينهما، إذْ علمت البشرية الكلمة الأولى الناطقة بها توفيقياً أو ابتكاراً، وذلك بمحاكاة أصواتها فألهمته لغة الشعر، لذا شغف بكل مظاهرها متمتعاً ومتسلياً بأطلالها ورياضها، فوقف أمام مشاهدها مبهوراً، ومنهم شاعرنا تميم بن المعز لدين الله الفاطمي بن المنصور بالله بن القائم بأمر الله (٣٣٧هـ-٣٧٥هـ)[١] الذي تستهويه وتستولي على فؤاده، فكان وعاؤه التأمل والتفكير في مجتمع الطبيعة صاحب الغرام والعطاء فهو يُهيج وجعه الإنساني من جهة ومشبعاً رغبة الآخر راضياً مرضياً

من جهة أخرى، فتردد صدى ذاته الشاعرة بالكون سماوياً أرضياً في مفردات قطرات الغيث المنهمر .

ووسيلتنا مع هذا الفنان الحاذق هو الرصد والتقاط شذرات نتاجه الفكري، وما خفي من عالمه الشعري الذي يمور بين أحضان الطبيعة، وبذلك ضمنا أن بحثنا سيناى من أن يكون مترهلاً ومملاً .

كان شاعرنا متفاعلاً مع ما يحيطه من طبيعة، مجسّداً صوره الحيّة التي تعكس وصفه الرائع محسوساً أو ملموساً معبراً من خلاله عن شوقه أو حزنه؛ ومن هذه التضادات يجمع ويبادل الصفات الإنسانية مع صفات الطبيعة الناطقة من ناقة أو حمامة أو طبيعة صامتة من كواكب وأنهار وغيث وأزهار، ويتخذ من التشبيه وسيلة للتعبير عما يجيش في خاطره مثل قوله (٢) :

لَعَمـــرُكَ إنمـــا الـــدنيا عَـــروسٌ   جَلاهـــا الغيـــثُ مـــن تحـــت النّقـــابِ
بَنَفْسَـــــــــجِهَا ونرْجُســـــــــها وَوَرْدُ   خِضـــــابٌ في خِضـــــاب في خضـــــابِ

ففي البيت الأول ورد التشبيه البليغ حين شبه الدنيا بالعروس مستغلاً ما يحمله من قدره التقريب بين المشبه والمشبه به، مع استعمال أسلوب القصر بوقوع المشبّه به في البيت الثاني خبراً للمشبّه الأول. والمشبّه به في باقي الشطر الثاني صيغة الجار والمجرور، في أحلى صورة متناسقة ناتجة عن حذق الشاعر في تركيب التشبيه .

واستعمل تميم بن المعز الطبيعة السماوية في التشبيه – الهلال – في شكله – نصف سوار مشخصاً الأفق بهيئة إنسان يمسك بالهلال فيقول (٣) :

وانجلـــى الغـــيمُ عـــن هـــلال تبـــدّى   في يـــد الأفـــق مثـــلُ نصـــف سِـــوارِ

ويُشبّه تميم صاحبته بالبدر في استعماله الطبيعة بمساجلة وتظرف رائع، وذلك من إحساسه بالجمال الأنثوي الذي يطغى على الجمال الطبيعي في قوله (٤):

شـــــبَّهتُها بالبــــدرِ فاستضــــحكتْ   وقابلــــــت قـــــوليَ بـــــالنُكْرِ
وســـــفَهتْ قـــــولي وقالـــت مـــتى   سَـــمُجْتُ حـــتى صـــرتُ كالبـــدرِ
البـــدر لا يرنـــو بعـــين كمـــا   أرنـــو ولا يبسِـــمُ عـــن ثغـــرِ

ومن حصافة ذهنه الذكي تتحول معالم الطبيعة السماوية كالشمس إلى معالم إنسانية أنثوية من خلال التشبيه، إذ الشمس تظهر وتختفي خلف رداء الغيم ، كوجه الغادة الحسناء المتبرجة في قوله (٥) :

وخلـــفَ رداءِ الغـــيم شمـــسٌ مـــنيرةٌ   تلـــوحُ كوجـــهِ الغـــادةِ المتـــبرجِ

ومن تشبيهاته النباتية ، استعمل لون الورد مقابل حمرة الخدود، والنرجس يحكي العيون وهو ما سمي بالتشبيه المقلوب فالأصل أن تشبه الخدود بالورد والعيون بالنرجس في قوله (٦) :

وردٌ حكــىَ خَجَــلَ الخُــدودِ ونــرْجِسٌ   يحكــي العيــونَ بــأعْيُنٍ مــا تطْــرِفُ

ويلجأ الشاعر إلى الاستعارة للتعبير عن كرم ممدوحه في نثر الغيم در الندى في قوله (٧) :

وَبَـــــرْدَ ظَلَمْــــاء دُجَــــاه إذا   بلّلــــــه قطـــــرُ الغُمامــــــات

وفي مدحه للخليفة العزيز بالله يستعير له مفردات الطبيعة السماوية، فالبرق في وميضة كأنه سيوف مذهبه منصلتة في قوله (٨) :

يفتـــرُّ عــــن مثـــل أوار النــــار   أو منـــتضٍ ســـيفاً مـــن النُضَـــارِ

ويوظف تميم الطبيعة الناطقة (الحيوان) في خدمة ممدوحه فجسد الجدول وهو ينساب بين أكناف الطبيعة بهيئة ثعبان يسعى مذعوراً أو كالسيف فيقول(٩):

ينســاب في الأكنــاف منــها جــدولٌ   كالنصْــــل أو كالحيـــــة المــــذعورِ

وتميم فارس فتسعفه الحرب بمفردات الفروسية والقتال والشجاعة فيستعير كلمة (الهزيمة) إلى الليل والانتصار إلى الصباح في وصف روضة فشخص الصباح بهيئة فارس يحمل رايات وهو في حرب فيها هزيمة وانتصار فيقول(١٠):

أمّــا الصــباح فقــد بــدت راياتُــه   بيضــا وقــد هُــزِمَ الظــلام الأكلــفُ

ويعبر الشاعر عن تجلياته النفسية بالاستعارة في بناء صورة يؤكد فيها جانب القوة والسلب لديه عند وصفه ماء نهر النيل الهادر، كأنها عساكر انطلقت تفتح المدن، وهذا التيار ملك أخذته زهوة النصر لإلحاق الهزيمة بأعدائه فيقول(١١):

أنظــر إلى النيــل قــد عبّــا عســاكِره   مــن الميــاه فجــاءت وهــي تســتبقُ
كــأنّ خلجانــه والمــاءُ يأخــذُها   مــدائنٌ فتحــت فاحتازهــا الغــرقُ
كــأنّ تيــاره ملــك - رأى ظَفَــرا   فكــر إِثْــرَ الأعــادي محنــق نــزِقُ

أما التشكيل البديعي في شعر تميم بن المعز الفاطمي، وهو بين يدي الطبيعة فقد اعتمد على ترددات المجانسة لتعميق تجربته الشعرية وإظهار طاقاته الشعورية وقدرته على التلاعب بالألفاظ بما يخدم نصه، فالشاعر جانس بين (المعشوق) و(العاشق) و(العشاق) في وصف بستان قصر المعشوق في قوله (١٢):

يــا أيهــا المعشــوق لا فارقــتَ   رُبــاك أنــوارٌ وإشــراقُ
فكــل معشــوقٍ لــه عاشــقٌ   والنــاسُ طُــرّاً لــك عُشّــاقُ

ويستعمل الشاعر تميم الجناس بين كلمة (الليل) و(الليالي) في وصف القهوة(١٣) :

يــا رب ليــل مــن ليــالي الكــوزِ   قطعتــه بطفلــة عجــوز

ويلجأ إلى الجناسُ للتعبير عن اعتزازه بنفسه وبنسبه إلى آل بيت رسول الله محمد ﷺ إذْ يشتق من الفعل (راح) اشتقاقات متعددة في قوله [١٤] :

فَـــرُحْ علـــى رَيْحانــا واســترح   للـــرّاح في دَوْحـــة مأنوســـها

ففي البيت أكثر من جناس (راح) و(ريحان) و(استرح) و(الراح) .

ويوظف الشاعر فن الجناس في تصوير الطبيعة معبراً عن آهاته الدفينة من أحزان ومسرات؛ ففي مقطوعته الغزلية يظهر لنا النسيج الجناسي في قوله[١٥]:

أسْـــهرني طـــولَ لـــيلتي رَشَـــأٌ   يَمْـــزجُ لي ريقَـــه بأقداحِـــهْ
عاجَـــتْ علـــى عـــاجِ خَـــده ظُلَـــمٌ   كأنمـــا الليـــلُ فـــوق إصـــباحِهْ

إذْ استخدم الفعل (عاجَ) وجانس بينه وبين (العاج)، ليرسم صور تجربته الشعرية.

وللطباق نصيب في شعر الطبيعة عند تميم والمقصود منه وصف مظاهر الطبيعة بركنيها الناطقة والصامتة، فمشهد السماء هي تمطر كأنه بكاء الأحبة يطرب الشاعر له، ويهيج مشاعره؛ فهو فَرِحٌ وسماؤه حزينة في تقابل جميل يرسم لوحة شعورية ناتجة عن صورة إنسانية يخلعها على الغيم وكأنه صب فارق الأحبة في قوله[١٦]:

كـــأنّ الغـــيمَ بـــان لـــه حبيـــبٌ   فأقبـــل باكيـــاً بجفـــون صـــبٍّ
وقـــد نضَـــحَ النســـيم بمـــاء ورد   ومـــدّ علـــى الهـــواءِ رداءَ سُـــحبِ
فلـــو أبصـــرته طَشّـــاً ورَشّـــاً   إذاً لرقصـــتَ مـــن طـــربٍ وعُجْـــبِ
كـــأنّ الشـــمس فيـــه عـــروس حَـــوفٍ   تُـــزَفُّ إلـــيهِم في ثـــوب شَـــرْبِ

تظهر لنا المطابقة في نضح النسيم بماء ورد – طشاً ورشاً، وهو تعبير يتناغم مع صوت الغيث المنهمر، وكذلك الشمس، عروس حوف تزف في ثوب شرب ، ومن الطبيعة السماوية يصوغ لنا تميم أنموذجاً حيّاً مفعماً بالحركة لخدمة فنه الطباقي بين البرق والليل في قوله [١٧] :

شَـــرى الـــبرقُ والتـــاعَ الفـــؤادُ المُعَـــذَبُ   وحـــار الكَـــرى في العـــين وهـــو مَذَبْـــذَبُ
يَلـــوحُ ويَخْبـــو في الســـماءِ كأنّـــه   ســـيوفٌ بأرجـــاء الســـماءِ تُقَلّـــبُ
شَـــرىَ قبـــلَ صَـــبْغ الليـــل بالحلـــك الرُبَـــا   ووافيَ وقـــد كـــادَ الصـــباحُ يُثَـــوِّبُ

فالطباق في صورة البرق (يلوح) و(يخبو) وفي البيت الثاني (الليل) و(الصباح) وكذلك في كلمتي (وافي) و(يثوب) .

وفي تصوير الفرس راح تميم يرسم لنا صورة جواده واضحة ودقيقة تجلى فيه فن الطباق والمقابلة في قوله [١٨] :

ولقـــد ذُعَـــرتُ الـــوحشَ يَحْمِلـــني   قَلِـــقَ العِنـــانِ مُشَـــذّب مَـــرِحُ
نشْـــوان أدْهَـــمُ غـــيرَ أربعـــةٍ   بـــيض بهـــا يَـــدْنو وينتـــزحُ
فكأنّـــه بالصـــبح مُنتِعـــلٌ   وكأنّـــه بالليـــل مُتّشِـــحُ

فالمقابلة بين لون الفرس الأدهم، والبياض لقوائمه، وفي كلمتي يدنو وينتزح يجلو لنا صورة جواده، صبحاً يولج في ليل، وهو يرمز للطبيعة الناطقة المتمثلة بـ(الفرس) فيتخذها وسيلة لجلب انتباه المتلقي، يعينه فن الطباق في هذه الصورة.

المبحث الثاني
الطبيعة الصامتة

وهي الطبيعة المتجسدة في سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقولها إلى غير ذلك (١٩) ، بركنيها أرضية من صحراء، ورياض ، وأزهار، وأنهار، وغدران ومياه، وسماوية من كواكب ونجوم وسحاب ومطر، كلها اختزنت في شعر تميم لها تعبيرات رمزيةٍ أو حقيقية عن ذاته، وتصور لنا حنينه وشكواه حين يصف الصحراء، إذْ تُعد صفحة ناصعة تُحاك من ذرات رملها همسة الانبعاث لإثبات كيانه المتنامي، ويرتبط كيانياً بكل ما يحفظه ويحتضنه (٢٠) ، بالرغم من غياب الماء فيها سوى سراب يلمع كالقطن المنثور، وشمسها حارقة وريح نكباء وبقر وحشي، وصوت زعاف الجن الذي يشبه عزف قيان ، في قوله(٢١) :

وَمَهمـــــةٍ مُشْـــــتبهِ الأرجـــــاءِ جَهْـــمِ الفيـــافي مُـــوحش البَهْمـــاءِ
عـــاري الرُبَـــا إلا مـــن النكبـــاءِ صَـــلْدٍ عَـــزازٍ شاســـعِ الفضـــاءِ
أجـــردَ مثـــل الصـــخرة الصّـــماءِ لـــــو وسَــــمْته ثُغـــرةُ الســـماءِ
إلا مـــــن الأجـــــال والآلاءِ تعـــزف فيـــه الجـــنُّ بالعشـــاءِ

ولعلّ الشاعر سلك هذا الإغراب اللفظي في وصف الصحراء، ليثبت قدرته على محاكاة الشعراء القدماء، وبيان فروسيته واعتداده بنفسه .

وللروضيات(٢٢) نصيب وافر من شعر تميم ، إذ طرقت نفسه نواميس الحضارة والثقافة المستمدة من بيئته الحضارية ومن خياله الرحب الذي جعل من التشخيص والتجسيم عطاءه الدائم، الذي نفث فيه أريج عواطفه التواقة وذاته الشاعرة، إذْ يتحسس أعماق الرياض ويتذوق مواطن الروعة، ليقدمها هدية إلى ممدوحه ، نحو قوله يقول (٢٣) :

أنظـــر لتقويـــف الريـــاض وحســـنها قـــد نمقّتـــه يَـــدُ السّـــحاب الممطـــرِ
بُسُـــط تخـــالَف صـــبْغها ونســـيجُها مـــا بـــين أصـــفَر كـــالعقيق وأخضـــرِ
يَجْمَعْـــن حُسْـــنَ المنظَـــر الزاهـــي الـــذي راقَ العيـــونَ إلى كـــريم المخـــبرِ

فقد شخص السحاب بهيئة إنسان له يد فطرز الرياض بألوان الأزهار حتى بدت في ناظره بسطاً ملونة.

وتنعكس صورة الرياض عند تميم المشاعر الإنسانية التي يخلعها على لوحته يجلو خلالها انفعالاته النفسية من فرح وحزن وتبدو الروضة في صورة المرأة الحسناء، في قوله(٢٤):

ريـــاضٌ مـــن الحســـن طافـــت علـــى ريـــاض مـــن النبـــت حمـــر البُنـــودِ
سَـــلَبن شـــقائقَها بالخـــدود وأخجلـــن أغصـــانها بالقُـــدودِ

وأعـــدَدْن للأُقحـــوان الغضـــيض بيـــاض ثغـــورٍ كـــنظم العقـــودِ

فالمرأة الحسناء تسلب الروضة الغناء حُسنها، فخدودها شقائق الورد، وتجعل الأغصان من الغدود الممشوقة ، ويفوق بياض الثغور الأقحوان الغض، وتصبح الروضة يانعة بالموازنة بجمال المرأة عند تميم .

ويتخيل شاعرنا زرقة الماء المتدفق وفيه السفن، إذ يحول هذا الوصف الخيالي إلى وصف جمالي تتشابك فيه عناصر الطبيعة؛ لأن الماء أصبح يؤلف فناً مستقلاً له سماته الفنية [٢٥] ، فيشبه أمواج الماء في أثناء البطن كما يشبه دواماته بالسرر، والسفن كالخيول تنفلت من فرسانها في قوله [٢٦] :

يـــومٌ لنـــا بالنيـــل مختصـــرٌ ولكـــل يـــوم مسّـــرةٌ قصَـــرُ
والسُّـــفْنُ تصـــعَد كـــالخيول بنـــا في موجـــه والمـــاء ينحـــدرُ
فكأنمـــا أمواجـــه عُكَـــنٌ وكأنمـــا داراتـــه سُـــرَرُ

أسقط تميم بن المعز الفاطمي على الطبيعة السماوية من غيم ومطر وليل وصبح دلالات شعورية وعاطفية، فوصل في مقطوعته إلى درجة التوحد مع عناصر الطبيعة بتصوير يمزج بين روحه التواقة الذائبة مع عناصر الطبيعة، فيقول [٢٧] :

كأنمـــا الجـــو انتقـــبْ منـــها يمســـك واختضـــبْ
حـــتى إذا الرعّـــد خطَـــبْ ونـــاح شـــجواً وانتحـــب
وجـــاء فيهـــا وذهـــب وخـــرقَ الـــبرقُ الحُجُـــبْ
يعـــدو بشُـــقر وشُـــهُب حـــتى إذا القطـــرُ انســـكبْ
واحتقـــل السَّـــيل وعَـــبْ وانتشـــع الغـــيُم اللّجِـــبْ
فـــالأرضُ في زيٍّ قشُـــبْ تبَرَّجـــتْ لِمـــنْ خطَـــبْ
أمـــا تـــرى دُعْـــجُ الثُّـــبْ وعســـكرَ الليـــل غَلـــبْ

وهكذا تطرد صور الطبيعة السماوية من صخب الرعد وصوته المتعتع، وسيف البرق يخرق الحجب، والغيث الذي حيثما نزل غوثاً ورحمة، والسيل متلهف بعد جدب طويل، وتظهر الأرض بثوب قشيب كحسناء متبرجة، وينتظر تميم في النهاية الليلِ في صورة عميقة وصادقة.

المبحث الثالث
الطبيعة الناطقة:

جميع ما خلق الله تعالى من الحيوانات ما عدا الإنسان [٢٨]، ومن الباحثين من أخرج الحيوان من هذا المفهوم [٢٩] ، ولكن الباحث مع الرأي الأول، إذْ نالت حظاً وافراً بصلتها

المتينة بالإنسان ليست مجرد مشاعر وأحاسيس وعوا طف بل وصفها في المواضع التي وجدها مناسبة لها [٣٠] .

كان نصيب الطبيعة الناطقة في شعر تميم وافراً وهذا ما يؤكد الصفة التراثية في شعره إذْ استمد من هذا التراث الوهج الشعري الذي ارتبط به وفي ظني أن يثبت ارتباطه بالنبعة المحمدية التي كثير ما كان زادها الأدب الرفيع، وليبيح خلاله ما كان يكتنز في خياله من إثبات حق الأسرة الفاطمية في الحكم بمدح أبيه المعز لدين الله وأخيه العزيز نزار، وجاء واضحاً في طردياته ، وهي من مظاهر الامارة عند الخلفاء والحكام فضلاً عن تسرية همومه ، إذ عدَّها القدماء رمز النضال من أجل الحياة [٣١] .

كانت الناقة رفيقة دربه تحت حلكة الظلام بين الفيافي والقفار، فجاء وصفها على لسانه بدوياً دقيقاً ، اسمعه يقول [٣٢] :

دَعْجــاءَ كالزنجيــة الســوداءِ	علــى عَســيرٍ فَنيــقٍ فَرْقــاءِ
حَــرْفٍ، هَجــانٍ لونُهــا، قَــوْداءِ	خَطــارةٍ زَيَّافــةٍ وَجْنــاءِ
مَضــبورةٍ ، تفْعَــل بالبيــداء	فعــلَ قَــراح المــاء بالصَّــهباءِ
قطعتُــه مشــيَّعَ الحَوْبــاء	بَعَزمــةٍ صــارمةٍ صَــمَّاءِ

في هذه الأبيات نرى الناقة مرتبطة بالشاعر ، فهو وحيدٌ تلفحه الريح في فلاة لا يهتدي فيها، معبراً عن شعوره الذاتي ، ولذا جاء بالأغراب اللفظي في صفات ناقته، عسير، فنيق، فرقاء، حرف، هجان، قوداء خطارة، زيافة، وجناء مضبورة، تحمل دلالات عميقة في نفسه ، قد يستعملها لذكرى الشوق لأجداده الكرام وإثبات مقدرته الشعرية أمام ممدوحه العزيز بالله . وقد امتطاها في موضع آخر ومنحها صفات دقيقة فهي لا تميل برأسها إلى راكبها، ونشيطة وقوية، أسرع من البعير، تشبه مشي النعام، وتنتمي إلى نسب عريق من (الشدقميات) أبل الملك النعمان بن المنذر ، أسمعه يقول [٣٣] :

وخَنُــوفٍ عَيْرانــةٍ عَنتــريسٍ	عَيسَــجُور شملَــةٍ مِســيار
تصــل الوَخْــد بالــذَميل إذ مــا	خــان أمثالُهــا بــني الأســفار
مــن بنــاتِ الجَــديل وهــي مــن السر	عــة معــدودةٌ مــن الأطيــار
أكلــتْ لحــمَ زَوْرِهــا دُجُ الليــ	ل ووصــلُ الــرواح بالإبكــارِ
ترتمــي مَجْهَــلَ المهامــةِ مــنى	بقليــل الكــرى قليــل الحِــذار

فقد صّور تميم ناقته معانقة روح العطف والحنان في مناجاته موروثه الشعري الذي لا ينفك من صراعه النفسي، وتوحي له بالأمومة وأرومة النسب في امتطائها إلى كنف ممدوحه الخليفة.

<u>الفرس:</u>

تقترن الفرس بفارسها وتظهر مقدرته وبطولته من خلالها عند خوض المعركة ويشبعها ويؤثرها على نفسه [٣٤] ، ومنهم شاعرنا تميم بن المعز لدين الله فضلاً عن المدة التي

عاشها، إذْ تدور رحى الحرب بين الدولة الفاطمية وأعدائها في الشام والعراق، ومنها نبتت وترعرعت قصيدة الفرس عنده ، عَبَّر فيها عن شجاعة الخلفاء والأمراء الفاطميين في وصف فرس يدعى – سرور – ثم يمدح الخليفة العزيز بالله فيقول [٣٥] :

فـــرسٌ أشـــم المنكـــبين مقابـــل ... يرمـــي الجنـــادل مـــن يديـــه بجنـــدلِ
تبنيـــك عـــن أفعالـــه أعضـــاؤه ... حُســـناً وعـــن أخـــراه عِتـــقُ الأوَلِ
عَجِـــزُ الوظيـــفِ كـــأنَّ لـــونَ أديمـــه ... حُبـــكُ الســـحابِ بعـــارضٍ مُتهلـــلِ
وتـــرى لـــه ذَنَبـــاً يَهـــزُّ فضـــولَهُ ... ويَجُـــرُّهُنَّ كريطَـــةَ المتعـــزلِ
في حُسْـــنِ عُـــرفٍ قـــد تكامـــل نبتـــه ... جَعْـــدٍ كحاشِـــيةِ الـــرداءِ المســـبلِ

في هذه اللوحة يصف الشاعر فرسه وصفاً دقيقاً ملماً بكل أعضائه مستعيناً بصور من الغريب اللفظي؛ ليثبت مهارته اللغوية وتمكنه الشعري، وقد أضفى على جواده صفات خلقية من جمال العنق، وقوة ضربه الصخور الصماء، فهو أشم المنكبين، وكريم النسب، ويسابق الريح، وكأني بتميم قد خلع الصفات البطولية من ممدوحه على فرسه، رابطاً بين مدح الفرس وشجاعة الممدوح.

الغزال:

أسبغ الشاعر تميم تشبيهاته الجمالية التي استمدها من مظاهر جمال الطبيعة الناطقة على حبيبته وأكثر ما وجدته فيها هي – الظبية [٣٦] ، وجاء الافتتان بها؛ لتناسق أعضائها ورشاقتها، فأسقط عليها من محنته وشدة وجده في تصوير جميل لمشهد فقدان الظبية وليدها حائرة كحاله حين ترزم الأمتعة وينادي المنادي مؤذناً بفراق الأحبة والرحيل ، اسمعه يقول [٣٧] :

ومـــا أمُّ خِشـــفٍ ظَـــلَّ يومـــاً وليلـــةً ... بَبلقعـــةٍ بَيْـــداءَ ظَمْـــآنَ صـــاديا
هَـــيمُ فـــلا تـــدري إلى أيـــن تنتـــهي ... مولَّهـــةً حَيْـــرى تجُـــوبُ الفَيافيـــا
أضَـــرَّ بهـــا حَـــرُّ الهجـــير فَلـــمْ تجِـــدْ ... لِغُلَّتهـــا مِـــن بـــاردِ المـــاءِ شـــافيا
فلَمـــا دنـــتْ مِـــن خِشـــفِها انعطفـــتْ لـــه ... فألفَتـــه ملـــهوفَ الجـــوانحِ طاويـــا
بِـــأوْجَعَ مـــني يـــومَ شـــدُّوا رِحـــالَهُم ... ونـــادى منـــادي الحـــيِّ أن لا تلاقيـــا

ولا يخفى أن الشاعر برع في عرض لوحة الفراق، وأسقط صفات الظبية على حبيبته عند الرحيل وهو يسمع خبر الفراق وقد طار قلبه خلف أصوات الإبل وحادي العيس، مستخدماً أسلوب القصر (وما أم خشف... يأوجع مني) للمقارنة بين حالة وحال الظبية.

الحمام:

أحب شاعرنا الطير، والحمام بخاصة، إذ جذبت ألوانه وصوته الرخيم روحه العذبة، يذكره بأوتار العشق حيناً وفي التعبير عن واقعه النفسي المتأزم حيناً آخر، وما بين هذا وذاك

راح خياله المرهف بالرقة الذي ينمو عن مجتمع متطور وحضاري أن ينسج تباريح النسيب بطائر الحمام، كقوله [٣٨] :

مطوَّقَةٌ ورقاءُ تندبُ شجوها ... وتسهَر فيه الليلَ وهو تمامُ
تنوح بلا دمع وللحزن آية ... على نوحها مشهورة وغرامُ
ألا يا حمام الأيك مالَكَ والهاً ... كأنك ممَّن أسكرته مدامُ
كِلانا مِحبٌّ صدعَ البين شَملَه ... وكلُ مِحبّ بالفراقِ يضامُ
سلام على من حجبتْ شخصه النوى ... وإن كان لا يغني المحبُّ سلام

وهكذا تبدو الطبيعة مادة خصبة استمد الشاعر تميم منها مفرداته وأدواته التصويرية في رسم صورة الشعرية، فالطبيعة ميدان واسع يلجأ إليها الشعراء ينهلون منها ما يعينهم على أداء تجاربهم الشعرية.

الخاتمة:

ليس بالغريب أن شاعرنا تميم الفاطمي نجده يهيم يُعنى الطبيعة الصامتة والناطقة، فهو شاعر مرتبط بالتطور الحضاري الذي يزهو به القرن الرابع للهجرة هذا التطور انعكس على وصفه وإحساسه العميق، فمنها ما كان امتداداً للإرث الثقافي في الشعر القديم؛ ولكنه ممزوج بحلاوة العصر الذي يعيش فيه والآخر اتخذه معادلاً موضوعياً مع أزمته النفسية من أبعاده عن الخلافة مرتين وكثرة حساده ، ولا ننسى آثار شعرية أخرى في الطبيعة لم نذكرها من وصف الفيل، واليازي، والكلاب، لكن اكتفينا بهذا الجهد المتواضع ، والله ولي التوفيق . وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الهوامش:

(١) ينظر: وفيات الأعيان: ٨/١ ، الحلة السيراء ، ابن الأبار : ٢٩١.
(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ٥٨.
(٣) المصدر نفسه : ١٨٣.
(٤) الديوان : ١٦١ .
(٥) المصدر نفسه : ٨٧.
(٦) المصدر نفسه : ٢٧٨.
(٧) المصدر نفسه : ٨٣.
(٨) المصدر نفسه : ١٧٦.
(٩) المصدر نفسه : ٢٠٩.
(١٠) المصدر نفسه : ٢٧٧.
(١١) المصدر نفسه : ٢٨٥.
(١٢) المصدر نفسه : ٢٩٤.
(١٣) المصدر نفسه : ٢٤٢.
(١٤) المصدر نفسه : ٢٤٦.

(١٥) المصدر نفسه : ٩٧.
(١٦) المصدر نفسه : ٦٦.
(١٧) المصدر نفسه : ٤٠.
(١٨) المصدر نفسه : ٩٧.
(١٩) ينظر: شعر الطبيعة في الأدب العربي : ٣.
(٢٠) ينظر: مقدمة الشعر العربي ، أدونيس : ٣٠-٣١.
(٢١) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ١٣-١٤.
(٢٢) الروضيات: أرض مخضرة بأنواع النبات. المنجد في المنجد في اللغة والأعلام ٢٨٧، ط١، دار المشرق، بيروت .
(٢٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي: ٢١١.
(٢٤) المصدر نفسه : ١١٠.
(٢٥) ينظر: اتجاهات الشعر من خلال يتيمة الدهر : ٢٥٩.
(٢٦) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي: ٢٤١.
(٢٧) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ٧٣.
(٢٨) ينظر: شعر الطبيعة في الأدب العربي : ٢٣.
(٢٩) ينظر: الطبيعة في الشعر الأندلسي، الركابي: ٨.
(٣٠) ينظر: المصدر نفسه : ١٨١.
(٣١) ينظر: الحيوان في صورة الإنسانية- بحث : ٤٢٨.
(٣٢) الديوان : ١٤.
دعجاء: شدد السواد والسعة في العين. العسير: الناقة الرافعة ذنبها في عدوها. الفنيق: الناقة الفتية السمينة . الفرقاء : البعيدة ما بين المسنمين .
(٣٣) المصدر نفسه : ١٨٥.
(٣٤) أنساب الخيل : ١٢.
(٣٥) الديوان : ٣١١.
(٣٦) ينظر : الطبيعة في الشعر الجاهلي : ٤٦.
(٣٧) ديوان تميم : ٤٦٢، وينظر: ٢٧٤.
(٣٨) المصدر نفسه : ٣٩٧، ٤٢٧، ٢٩٦.

ثبت المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم .
١. اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري (من خلال يتيمة الدهر)، د.نبيل أبو حاتم، الدوحة، دار الثقافة، ١٩٨٥م.
٢. أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، ابن الكلبي، تحقيق المرحوم أحمد زكي، مطبعة الهيئة المصرية، ١٩٧٧م.
٣. الحلة السيراء، ابن الأبّار، (ت ٦٥٨هـ) ، تحقيق د. حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.
٤. ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، تحقيق: محمد حسين الأعظمي ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م.
٥. شعر الطبيعة في الأدب العربي، سيد نوفل، القاهرة ، مطبعة مصر، ١٩٤٥م.

٦. الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، دار الإرشاد، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.
٧. الطبيعة في الشعر الأندلسي، د. جودة الركابي، مكتبة الترقي، ط٢، دمشق، (د. ت) .
٨. مقدمة الشعر العربي، أدونيس، ط٣، بيروت، ١٩٧٩م.
٩. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، ط١، مصر، ١٤٩٩هـ .

البحوث:
١- الحيوان في صورة الإنسانية ، د. صالح الأشتر (بحث) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٩٤م.